إضاءة

إيليّا أبو ماضي

شاعر الحنين... والأحزان

١٨٨٩ – ١٩٥٧م

يعتبر الشاعر المبدع إيليا أبو ماضي، أحد أبرز شعراء المهجر الشمالي، ومن أكبر الشعراء العرب المعاصرين في القرن العشرين.

ولد في قرية "**المحيدثة**" اللبنانية. من قرى قضاء المتن الشمالي وجارة "**بكفيا**" بحكم الموقع الجغرافي. وهي تمتاز بطبيعتها الخلابة الفاتنة وبأشجارها الباسقة، لا سيما السنديان والصنوبر، وبأوديتها الغافية على حلل سندسية زاهية نضرة. وهي هادئة الموقع بعيدة عن الصخب والزحام وزعيق السيارات والشاحنات.

وبالرغم من أن شاعرنا المرموق من أبناء العصر الحديث، وليس من شعراء العصر الجاهلي، إلاّ أن النقاد والمؤرخين اختلفوا في تحديد سنة ولادته. فجريدة "السائح" المهجرية تذكر أنه ولد عام /١٨٨٩م/. أما الأستاذان محمد قره علي وجورج صيدح فيذكران أنه من مواليد عام /١٨٩٠م/. بينما يرى عميد الأدب العربي الدكتور طه حسين أن الشاعر من مواليد عام /١٨٩١م/. ويؤكد هذا التاريخ الأديب السوري زهير ميرزا. ويجاريه في هذا الشأن الدكتور عبد المجيد عابدين والأستاذ نجدة فتحي صفوت.

والآن أي هذه التواريخ أقرب إلى الصواب على حد تعبير الأديب طالب زكي طالب مؤلف كتاب "**إيليا أبو ماضي بين التجديد والتقليد**"؟

المرجح أنه العام /١٨٨٩م/، لأسباب منها أن مجلة "**الفنون**" النيويوركية قريبة الصلة بالشاعر فصاحبها "**نسيب عريضة**" "كأبي ماضي" أحد أعضاء الرابطة

obeikandl.com

القلمية، وهو على اطلاع أكيد على حياة الشاعر ودقائقها. قد يقال إن مجلة "**الفنون**" أعطتنا موجزاً عن حياة الشاعر عام /١٩١٦م/، أي قبل تأسيس الرابطة القلمية بأربع سنوات وقبل ارتباط اسم الشاعر بها وبمؤسسيها، وهذا التساؤل يتداعى حينما نعلم أن جريدة "**السائح**" لسان حال الرابطة القلمية أكدت هذا التاريخ. ويثبت الدكتور "**جورج ديمتري سليم**" رسالة من الشاعر المهجري "**نعمة الحاج**" يقول فيها:

"إيليا أعز صديق وأحب عشير ورفيق لي... وإني متأكد أنه من عمري. فلطالما تذاكرنا بذلك وكلانا ولد سنة ١٨٨٩م هو في شهر أيار "مايو" وأنا في شهر آب "أغسطس"...." . وعلى هذا الأساس فالمرجح أن تاريخ ولادة الشاعر هو العام /١٨٨٩م/.

تلقى إيليا أبو ماضي تعليمه الأولي، مبادئ القراءة والكتابة، في مدرسة قريته، ثم هاجر إلى مصر سنة /١٩٠٠م/، وبقي في الإسكندرية مدة /١١/ سنة، وهناك نهل من معين التراث العربي الشيء الكثير، فقرأ بمحبة ونهم دواوين الشعراء العرب عبر عصورهم المختلفة، وكان على تواصل مباشر مع مشاهير الأدباء المصريين، الذين كانوا يسعون إلى نبش الكنوز الفكرية المنسية في المكتبات العامة والشخصية، وعرضها من جديد في حلة نضرة قشيبة خالية من أخطاء الناسخين.

لقد توجه الشاعر إلى مصر، بعد أن ضاقت سبل الرزق به وبعائلته في قرية "**المحيدثة**". فقد كان والده رقيق الحال، منصرفاً إلى عمل ريفي يمارسه أهل تلك المنطقة في ذلك الزمن، وهو تربية دود القز والعناية بأشجار التوت. وكان هذا الأب المكافح يعيل أسرة مكونة من ستة أولاد على التوالي وحسب أعمارهم: **مراد، إيليا، متري، طانيوس، إبراهيم، وأوجني**، بالإضافة إلى **زوجته سلمى**. وأوجني صغرى أبنائه تعاطت مهنة الخياطة. وهذا يشير إلى فقر العائلة وحاجتها الماسة إلى المال. ولذلك هاجر الأبناء برمتهم إلى مصر والولايات المتحدة الأمريكية تاركين الأخت مع والديها في لبنان على حد تعبير الأديب الباحث طالب زكي طالب.

وفي الإسكندرية افتتح دكانة صغيرة لبيع الدخان، وظل يمارس هذه المهنة الهامشية حتى غادر إلى الولايات المتحدة الأمريكية.

والحق يقال... فإن موهبته الشعرية تفتحت في مصر، وكان للأديب اللبناني أنطون الجميّل المقيم في القاهرة، الفضل في اكتشاف هذه الموهبة ورعايتها، حيث نشر له في مجلته الشهيرة "الزهور" العديد من قصائده التي تمثل بواكير شعره. وفيما يلي هذه الشهادة الأدبية التي وردت في مجلة "الزهور" عن إيليا وشعره:

"أديب أوحي إليه الشعر وحياً فقاله عفو الخاطر، وأرسله سهلاً رائقاً، سائغ البيان، صافي الديباجة. لم يتلق آداب اللغة في مدرسة، ولا أخذ قواعد النظم عن أستاذ أو عن كتاب، فهو أديب بالفطرة وشاعر بالسليقة".

وفي الاسكندرية أصدر ديوانه الأول الذي حمل اسم "**تذكار الماضي**"، ومما يسترعي الانتباه بعد أن اطلعنا على قصائد هذا الديوان، غياب قصائد المدح عنه، فليس فيه قصيدة واحدة في مدح أي إنسان، سواء أكان من المهاجرين "**الشوام**" أم من الأمراء المصريين، لأنه يزدري من يبيع ماء وجهه في سوق النفاق، ليحصد بعض المكاسب المالية. وتجدر الإشارة هنا.. إلى أن الأديب الخالد **جبران خليل جبران**، هو الذي كتب بقلمه المبدع مقدمة ديوان إيليا الثاني قائلاً:

"الشعر عاطفة تتشوق إلى القصيّ غير المعروف فتجعله قريباً معروفاً. وفكرة تناجي الخفي غير المدرك فتحوله إلى شيء ظاهر مفهوم.

أما الشاعر فهو مخلوق غريب ذو عين ثالثة معنوية ترى في الطبيعة ما لا تراه العيون، وأذن باطنية تسمع من همس الأيام والليالي ما لا تعيه الآذان.

ينظر الشاعر إلى وردة ذابلة فيرى فيها مأساة الدهور، ويشاهد طفلاً راكضاً وراء الفراشة فيرى فيه أسرار الكون، ويسير في الحقل فيسمع أغاني البلابل والشحارير، وليس هناك شحارير ولا بلابل، ويمشي في العاصفة فيخوض غمار معركة هوجاء بين جيوش الأرض وفيالق السماء. يقف الشاعر أمام شلال فيقول:

فيـــه مـــن الـــسيف الـــصقيل بريقـــه

ولـــــه ضـــجيج الجحفـــــل الجـــــرار

أبـــــداً يـــــرش صـــــخوره بدموعـــــه

أتـــــراه يغـــــسلها مـــــن الأوزار

ويرفع عينيه ليلاً نحو السماء فيصرخ:

أبكـــــي وتـــــصغي إلى بكـــــائي

يـــــا رب هـــــل تعـــــشق النجـــــوم

ويلتقي بحبيبه فيهمس:

وددت الإفاضـــــة قبـــــل اللقـــــاء

فلمـــــا لقيتـــــك لم أنـــــبس

وبـــــت وإيـــــاك في معـــــزل

كـــــأني وإيـــــاك في مجلـــــس

يرى الشاعر ويسمع كل هذه الأمور من خلال برقع الحياة، وأنت واقف بجانبه لا ترى غير مظاهرها الخارجية، ولا تسمع سوى أصواتها المشوشة فتقول في ذاتك: يا له من خيالي مجنون يتمسك بخيوط العنكبوت، ويصعد نحو النجوم على سلم مصنوع من أشعة القمر ويحاول أن يملأ جرته من ندى الصباح بل من السراب. أي فالشاعر يصعد إلى الملأ الأعلى ولكن على سلم أقوى وأبقى من الجبال ـ يصعد بعزم الروح، ويتمسك بحبال غير منظورة ولكنها أمتن من سلاسل الحديد ـ يتمسك بحبال الفكر ويملأ كأسه من عصير أرق من ندى الفجر ـ يملأها من

obeikandi.com

خمرة الخيال، والخيال هو الحادي الذي يسير أمام مواكب الحياة نحو الحق والروح.

الشاعر يفعل كل ذلك وأنت على الأرض لا تستطيع المسير إلا على قدميك. ولا الصعود إلاّ على سلم من خشب. ولا السكر إلاّ من عصير العنب، ولا المسرة إلاّ بالربح، ولا الألم إلاّ بالخسارة.

الشاعر طائر غريب يفلت من الحقول العلوية ولكنه لا يبلغ الأرض حتى يحن إلى وطنه الأول فيغرد حتى في سكوته، ويسبح في فضاء لا حدّ له ولا مدى مع إنه في قفص.

وإيليا أبو ماضي شاعر وفي ديوانه هذا سلالم بين المنظور وغير المنظور، وحبال تربط مظاهر الحياة بخفاياها وكؤوس مملوءة بتلك الخمرة التي إن لم تشفها تظل ظمآناً حتى تمل الآلهة البشر فتغمرهم ثانية بالطوفان".

وفي صيف عام /١٩١١م/ ضاقت مصر به على رحابتها فتركها عائداً إلى لبنان، ذلك الوطن الذي ظل يهواه ويحن إليه طوال فترة اغترابه، وحين وصل إلى وطنه لاقى فيه خلال شهر صنوف العذاب والمضايقات، مما دفعه على الهجرة الثانية من لبنان التي خاطبها بقصيدته الشهيرة "**وداع وشكوى**"، وأبحر قاصداً هذه المرة الولايات المتحدة الأمريكية، علّه يجد في الغرب من الحرية والعدالة والغنى ما ينسيه الشرق وظلمه، على حد تعبير الأديب طالب زكي طالب الذي نستمد من كتابه القيم الذي أشرنا إليه هذه المعلومات الموثقة:

وحط رحاله في "**سنسناتي أوهايو**" وهي ولاية داخلية، اشتهرت بجمال مناظرها وروعة طبيعتها، وهناك راح يمارس التجارة مع أخيه الأكبر "**مراد**" وقد كان قسم وقته بين العمل والنظم الشعري، وبقي في تلك الولاية أربع سنوات في شبه عزلة، ولكنه كان يختزن الكثير من الأحاسيس والتطلعات والتأملات، ويمر بالتجارب النفسية المتعددة، ويطالع ما يصل إلى يديه من آثار أدبية ويطلع على ما يجول في العالم الجديد من حركات اجتماعية وإصلاحية واتجاهات روحية ويتمثلها في صمت واستقرار، وكانت الولايات المتحدة في تلك الفترة تقف على عتبة نهضة

شعرية رائعة لم يسبق أن عرفت لها مثيلاً في تاريخها. وقد تأثر أبو ماضي بهذه الحركة فتراه يترجم الكثير من القصائد الأمريكية إلى العربية ويضمها فيما بعد إلى دواوينه. وسرعان ما نسي شاعرنا التجارة وشجونها ولغة الأرقام الصماء، وانغمس انغماساً كلياً بالأدب والحياة الأدبية ودفعه هذا إلى ترك العمل في التجارة، بعد أن أخفق في التوفيق بينها وبين الأدب.

ورأى أن الإقامة في "**سنسناتي أوهايو**" لن تؤمن له ما يبتغيه أو يطمح إليه، فراح يفتش بهمة عالية عن محيط أوسع فعاد إلى الترحال، وحطت به عصا الترحال هذه المرة في "**نيويورك**" سنة /١٩١٦م/، وكانت الجالية العربية في هذه المدينة أكثر عدداً منها في أي مكان آخر. كما أن سبل العيش فيها متوفرة ومفتوحة. وقد اتجه في "**نيويورك**" إلى بلاط صاحبة الجلالة: الصحافة فرأس تحرير "**المجلة العربية**" ثم تركها ليسهم في تحرير مجلة "**الفتاة**" التي كان يصدرها السيد شكري البخاش، وتحول بعد ذلك ليعمل في تحرير مجلة "**مرآة الغرب**" لصاحبها نجيب دياب منذ العام /١٩١٨م/ حتى العام /١٩٢٨م/، وتزوج ابنته "**دوروثي**"، فأنجبت له "**رتشرد**" و"**إدوارد**" و"**روبرت**"، وظلت إلى جانبه حتى وفاته، وقد قضى عشر سنوات يكتب وينقح في هذه المجلة وتحسن وضعه المالي وأحواله العامة. ويعتقد بعض الدارسين أن لزواجه علاقة بتحسن أحواله المالية، فقد قيل إنه كان وليد مصلحة مادية...

وفي نيسان "أبريل" عام /١٩٢٩م/ أسس مجلة "**السمير**" نصف شهرية، وحولها بمجهوده إلى جريدة يومية ظل يصدرها، بانتظام، حتى جاد بنفسه الأخير. وقد أسهمت هذه المجلة إسهاماً هاماً في حياته الفكرية، لأنه اتخذها منبراً يعرض من فوقه الكثير من القضايا الأدبية والاجتماعية والسياسية. وكانت "**السمير**" على اتصال بالأحداث الشرقية، فلم ينس صاحبها لبنان والشرق العربي بل كان يراقب أحداثهما عن كثب ويوليهما اهتمامه البالغ.

وفي نيويورك كانت حياته الأدبية خصبة جداً فأصدر فيها دواوينه الشعرية الثلاثة: "**الجداول**" و"**الخمائل**" و"**ديوان إيليا أبو ماضي**". وانخرط منذ العام

/١٩٢٠م/ في صفوف الرابطة القلمية، التي كان من أبرز مؤسسيها: جبران خليل جبران (عميدها)، وميخائيل نعيمة (مستشارها)، ووليم كتسفليس (خازنها). أما الأعضاء فهم: ندرة حداد، إيليا أبو ماضي، وديع باحوط، رشيد أيوب، الياس عطا الله، عبد المسيح حداد، ونسيب عريضة.

وعهد إلى الأستاذ ميخائيل نعيمة بوضع قانون للرابطة، فدبج مقدمة تبين روح الرابطة ومراميها، وكان من المقدمة هذه النبذ التي لا تزال دستوراً صحيحاً من دساتير الأدب القوي:

"ليس كل ما سطر بمداد على قرطاس أدباً، ولا كل من حرر مقالاً أو نظم قصيدة موزونة بالأديب، فالأدب الذي نعتبره هو الأدب الذي يستمد غذاءه من تربة الحياة ونورها وهوائها. والأديب الذي نكرمه هو الأديب الذي خص برقة الحس ودقة الفكر وبعد النظر.... بيد أننا إذا ما عملنا على تنشيط الروح الأدبية الجديدة، لا نقصد بذلك قطع كل علاقة مع الأقدمين فبينهم من فطاحل الشعراء والمفكرين من ستبقى آثارهم مصدر إلهام لكثيرين غداً وبعد غد، غير أننا لسنا نرى في تقليدهم سوى موت لآدابنا، لذلك فالمحافظة على كياننا الأدبي تضطرنا للانصراف عنهم إلى حاجات يومنا ومطالب غدنا، وحاجات يومنا ليست كحاجات أمسنا".

وأصبح أبو ماضي شاعر الرابطة القلمية الأول وربما أمير شعراء المهجر، بل وصل الأمر بالشاعر العراقي الكبير أحمد الصافي النجفي (نزيل دمشق)، أنه أطلق على الشاعر إيليا لقب أمير الشعراء العرب. يقول الصافي:

سألتني الشعراء أين أميرها؟

فأجبت "إيليا" بقول مطلق

قالوا وأنت فقلت: ذاك أميركم

فأنا الأمير لأمة لم تخلق

لقد كان إيليا شاعر المعاني وليس المباني، مثله مثل الصافي، وهذا ما يفسر سر إعجابه الشديد به.

وفي العام /١٩٤٨/ زار إيليا أبو ماضي لبنان بعد انقطاع طويل، ليمثل مع الصحافي "**حبيب مسعود**" صاحب مجلة "**العصبة**" في البرازيل صحافة المهجر، وكان موضع تكريم وحفاوة، فقد سارع اللبنانيون للاحتفاء به، وقد منحته الحكومة للبنانية وسامي الأرز والاستحقاق، كذلك أقيمت له في دمشق حفلات التكريم، وعلق السيد هاشم الأتاسي رئيس الجمهورية العربية السورية، على صدره وسام الاستحقاق الممتاز سنة /١٩٤٩/ وألقى الشاعر في هذه المناسبة قصيدة مطلعها:

حـــيّ الـــشآم مهنـــداً وكتابـــا

والغوطـــة الخـــضراء والمحرابـــا

وعاد إلى المهجر.. بعدما كحل عينيه برؤية وطنه ومرابع صباه، وفي سنة /١٩٥٧/ توقف الخافق المعذب عن الحركة، وسقط القلم ـ الذي كان يخط أروع الشعر وأصدقه ـ من بين أنامله، وانتقلت روحه إلى باريها.

وإذا كانت لنا من كلمة أخيرة.. فإن شعر إيليا أبو ماضي، قد مرَّ بثلاثة أدوار: دور التقليد، ودور القلب، ودور العقل، وهي أدوار متداخلة. ففي دور التقليد، لا يدل الشعر على شخصية أبي ماضي الحقيقية، ولا على نفسيته الاجتماعية ولا حتى على مشاعره الرومانتيكية. أما دور القلب فيشمل كل شعر قاله، وهو غارق في غمرة النزعة الرومانتيكية، مسحور بالأحلام والرؤى. فإذا زحف إليه الأثر العقلي، وأخذت الأشياء تفقد تلاوينها الحالمة، ورؤاها الخلاّبة، وقع الشاعر في مسقط ضوء واضح من المفهومات الاجتماعية، إلاّ أن هذا الدور نفسه لم يكن خاضعاً لسيطرة ذهنية، بمقدار ما كانت حدة العاطفة تملك زمامه وتتحكم في توجيهه.

أمـا الناقـد اللبنـاني المعـروف مـارون عبـود، فيتنـاول في كتابـه "**مجـددون ومجترون**" شعراء كباراً وناشئين، فقال فيهم كلماته النارية وإن كانت جارحة بمحبة، تلك المحبة التي توجع أحياناً، فلا يتنكر لها إلاّ من يجهل مارون عبود وأسلوبه التهكمي، أو من يضيق صدره بكلمة حق تُقال من فوق السطح.

ماذا يقول ناقدنا الكبير عن شاعرنا إيليا أبو ماضي؟! إليكم ما خطّه قلمه الرشيق:

"وهذا إيليا أبو ماضي يحاول التجديد، ومومياءات الأقدمين تغويه بمظاهر لا تعد، كأنها الشياطين في أسطورة القديس أنطونيوس (راجع رواية فلوبير) فيرصفها بين عذاراه الطريئة، فتبدو كحصيات فسيفساء في جدار جلّ ما فيه حديث، خذ مثلاً قصيدته التي يختم كل مقطع منها ب "لم أجد أحداً"، ابحث لتعلم من أي شاعر قديم استعار هذه "اللازمة"

ثم خذ قصيدة أُخرى سينية عنونت بهذا الشطر "**وبلادنا متروكة للناس**" فتراه فيها يشبه كامرىء القيس "**بمسابح الرهبان في الأغلاس**"، كأنه نسي أن زماناً كانت فيه الرهبان مصابيح تضاء في الأغلاس قد انقضى عهده... ثم لا يحجم إيليا أن ينفحنا بالكذبذب، ويأخذ تعبير الشاعر الأموي عينه "**حز مواسي**" ليسد به ثلمة قافية في القرن العشرين.

ويستعمل هذا المثل، محشوراً، فيقول: وضربت أخماسي إلى أسداسي. ومحصول كلامه دق الكف بالكف للتحسر، وليس هذا مفاد المثل العربي: ضربت أخماسا إلى أسداس، إلاّ إذا كانت يد من يقوله سداسية.

وفي قصيدته "**الفراشة**" يخاطبها قائلاً:

وكلما نورت في السفح زنبقة

حثثت للسفح من شوق مطاياك

ذكّرني تعبير إيليا هذا بقول المنفلوطي لفرح أنطون، حين عاد من أمريكا، أوحين ذهب إلى أمريكا ـ لا أذكر جيداً:

إن كنـــت لا تبغـــي لنفـــسك راحـــة

فـــأرح مطيـــك والـــدنى وبنيهـــا

فعقَّب فرح أنطون المجدد على بيت المنفلوطي هذا بقوله: إننا ركبنا الباخرة فلانة فلا خيل ولا نياق.

فنصيحتي الأدبية إلى الشاعر "**إيليا أبو ماضي**" أن ينقي شعره من هذا الزؤان، من هذه التعابير البائخة، ويبدع تعابير تليق بشعره العصري، فالشعر موسيقى أولاً، والنغم المبتذل لا يهز النفوس".

وبالرغم من هذا الرأي النقدي الحاد يبقى "**إيليا أبو ماضي**" شاعر المهجر الأكبر دون منازع، تشهد له بذلك أشعاره الجميلة في الغزل، والحكمة والتأمل، والحنين، والإشفاق على بني الإنسان في الشرق وفي الغرب المتوحش في هذه الأيام.

obeikandl.com